الحقيقة عن طريق المجاز. فقد يكون العالم بجميع ما فيه خاضعاً لنظام محكم كنظام الفصول على الأرض. فلا بدّ لكلّ ما يبتدىء في الزمان وينتهي في الزمان من أن يمرّ بثورة من الانطلاق تعقبها فترة من استجماع القوى وتنظيمها، ثمّ فترة من الحصاد والجنى، ثمّ انغلاق جديد أو قيلولة قد تدوم شهراً وقد تطول دهراً. وإذ ذاك فلنا الحقّ كلّ الحقّ أن نتحدّث عن ربيع الشمس أو أيّ كوكب في الفضاء، وعن صيف الإنسانيّة، وخريف المدنيّة، وشتاء هذا المذهب أو ذاك مثلما نتحدّث عن ربيع الأرض وصيفها وشتائها. والأمر الذي لا شكّ فيه عندي هو أنّ الحياة المتجسدة في الإنسان لا تنفكّ تنشرها الفصول وتطويها إلى أن تبلغ بها الحريةَ القصوى حيث تنعتق انعتاقاً أبديّاً من ربقة الفصول وسلطة الدهور.

إلّا أنّنا مهما تمادينا في المقارنة ما بين فصول السنة وفصول العمر، ومهما استهوتنا وجوه الشبه بين تلك وهذه لا يصحّ لنا أن نتجاهل الفوارق الجسيمة ما بين الطبيعة العجماء والطبيعة العاقلة. فنحن بالنظام الذي تخضع له أجسادنا قد لا نختلف بكثير أو قليل عن النبتة والحشرة والبهيمة، إذ نمرّ مثلما تمرّ بأطوار أربعة: تَفتّح فاكتمال فجنى فانحلال. ولكنّنا نملك من عناصر التفتّح والنموّ فوق ما